

فصوص الحِكْمَةِ

للشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي لهتوفى سنة ٦٣٨ هجرية

والتعليقات عليه

بِقَلم

أبو العلاء عفيفي

دكتور في الفلسفة من جامعة كمبرج

الناشر دار الكتاب العربي

بيروت - لبنان

تصدير

الفصوص ومذهب ابن عربي فيه

١ - مؤلفات ابن عربي

للشيخ أبي بكر محمد بن علي الملقب بمحيي الدين بن عربي المتوفي سنة ٦٣٨ هـ ١٢٤٠م من المؤلفات ما لا يكاد العقل يتصور صدوره عن مؤلف واحد لم ينفق كل لحظة من لحظات حياته في التأليف والتحرير ، بل شغل شطراً غير قليل منها فيما يشغل به الصوفية أنفسهم من ضروب العبادة والمجاهدة والمراقبة والمحاسبة . ولو قيس ابن عربي بغيره من كبار مؤلفي الإسلام المتفلسفين أمثال ابن سينا والغزالي لبذّهم جميعاً في ميدان التأليف من ناحية السك والكيف على السواء . أما من ناحية السك ، فقد ألّف نحواً من مائتين وتسعة وثمانين كتاباً ورسالة على حد قوله في مدكرة كتبها عن نفسه سنة ٦٣٢ هـ ، أو خمسمائة كتاب ورسالة على حد قول عبد الرحمن جامي صاحب كتاب نفحات الأنس ؛ أو أربعمائة كتاب كما يقول الشعراني في اليواقيت والجواهر . وقد وصفه بروكلمان (ج ١ ص ٤٤١) بأنه مؤلف من أخصب المؤلفين عقلاً وأوسعهم خيالاً ؛ وذكر له نحواً من مائة وخمسين مؤلفاً لا تزال باقية بين مخطوط ومطبوع . ومهما يكن من التضارب بين الكتاب في عدد مؤلفات ابن عربي وأحجامها ، فليس هناك من شك في أن هذا الرجل كان من أغزر كتاب المسلمين

علماء وأوسعهم أفقاً وأدناهم إلى العبقريّة والتجديد في ميدان دخل فيه كثيرون غيره ، ولم يخرجوا منه بمثل ما خرج ، ولا بلغوا فيه الشأو الذي بلغ . ولا جدال في أن مؤلفاته تربو على المائتين على أقل تقدير ، من بينها « الفتوحات المكية » ، تلك الموسوعة الصوفية العظيمة التي لم تلق بعد من العناية والدرس ما هي جديرة به ، ومنها تفسيره الكبير للقرآن الذي يقول فيه صاحب فوات الوفيات (ص ٣٠١ - ٢) إنه يبلغ خمسة وتسعين مجلدة ، ومنها : « فصوص الحكم » و « محاضرة الأبرار » ، و « إنشاء الدوائر » و « عقلة المستوفز » و « عنقاء مغرب » و « ترجمان الأشواق » وغيرها . وأما من ناحية الكيف ، فإن كتب ابن عربي جميعها - فيما أعلم - من واد واحد هو وادي التصوف الذي لزمه طول حياته وعاش في جوه العملي والنظري . فلم يخض في الفلسفة والطب والرياضة والتصوف كما فعل ابن سينا ، ولم يشغل نفسه بمشاكل الفلاسفة والرد عليهم وعلى غيرهم من الملاحدة ، وبالتأليف في أصول الفقه والمنطق والتصوف كما فعل الغزالي . وإنما كرّس جهده للكتابة في التصوف في شتى نواحيه ، مبتدئاً بالكتب ذات الموضوعات الخاصة أمثال « التدبيرات الإلهية » الذي وضعه في المملكة الإنسانية والمقابلة بين الإنسان والعالم ؛ وكتاب « مواقع النجوم » الذي وضعه في قواعد أهل الطريق ؛ ورسالة الخلوة التي وضعها في نصح المريد وما يجب عليه في خلوته ، و « عنقاء مغرب » الذي وضعه في الولاية . ثم عقّب بالكتب المطوّلة الشاملة لنواحي التصوف النظرية والعملية ككتاب الفتوحات المكية الذي ألفه بين سنة ٥٩٨ و سنة ٦٣٥ . فقد جمع في هذا الكتاب أشتاتاً من المعارف تمثل الثقافة الإسلامية بأوسع معانيها ، وحشدها جميعها لخدمة العلم الأساسي الذي ندب نفسه للكتابة فيه ، وهو التصوف . وانتهى في دور نضجه العقلي والروحي بتأليف

كتاب فصوص الحكم الذي يمثل خلاصة مذهب ظلّ يضطرب في صدره نيفاً وأربعين عاماً ، وهو لا يجرؤ على الجهر به في جملته ، ولا يخرجه في صورة كاملة بحكمة التأليف إلى أن صاغه آخر الأمر في هذا الكتاب الذي طلع به على الناس فأذهلهم وأثار في نفوسهم الحيرة والشك كما أثار الإعجاب والتقدير .

٢ - منزلة الفصوص وأثره

ولا مبالغة في القول بأن كتاب « الفصوص » أعظم مؤلفات ابن عربي كلها قدراً وأعماقها غوراً وأبعدها أثراً في تشكيل العقيدة الصوفية في عصره وفي الأجيال التي تلتها . فقد قرر مذهب وحدة الوجود في صورته النهائية ووضع له مصطلحاً صوفياً كاملاً استمدته من كل مصدر وسعه أن يستمد منه ، كالقرآن والحديث وعلم الكلام والفلسفة المشائية والفلسفة الأفلاطونية الحديثة والعتوصية المسيحية ، والرواقية وفلسفة فيلون اليهودي ، كما انتفع بمصطلحات الإسماعيلية الباطنية والقرامطة وإخوان الصفا ومتصوفة الإسلام المتقدمين عليه . ولكنه صبغ هذه المصطلحات جميعها بصبغته الخاصة وأعطى لكل منها معنى جديداً يتفق مع روح مذهبه العام في وحدة الوجود ، فخلّف بذلك ثروة لفظية في فلسفة التصوف كانت عدة متصوفة وحدة الوجود في العالم الإسلامي عدة قرون ، وحوها حامت جميع المعاني التي طرقها كتبهم . وما من صوفي إسلامي أتى بعد ابن عربي ، شاعراً كان أم غير شاعر ، عربياً كان أم فارسياً أم تركياً ، إلا تأثر بمصطلحه ، ونطق عن وحي كلمه . ولست أذهب إلى أن هذا المصطلح الفلسفي الصوفي الكامل الذي وضع فيه المؤلف كتاباً خاصاً ، موجود برمته في الفصوص ، فإن فتوحاته المكينة الذي هو أعظم موسوعة في التصوف في اللغة

العربية غني حافل بهذه المصطلحات ، ولكن الفصوص حوى أهمياتها وأضفى عليها من الدقة العلمية والنضج الفكري ما لا نجده في كتاب آخر له . وإلى مصطلحات الفصوص خاصة يرجع فضل تأثير ابن عربي فيمن ترسم خطاه في الطريق الصوفي .

على أن أهمية الفصوص ليست قاصرة على مصطلحاته التي ردها الصوفية والشعراء من بعد ابن عربي ترديداً ، فإن للكتاب قيمة أخرى لا تقدر من ناحية مادته ، إذ فيه يعالج المؤلف مشكلته الكبرى - مشكلة وحدة الوجود - وما تفرع عنها من المسائل التي سلك في استنباطها مسلكاً كلامياً خاصاً لا أجد له نظيراً في مؤلف آخر من مؤلفاته ، وربط هذه المسائل كلها ربطاً محكماً داخل دائرة مذهبه العام . فجاء كتابه خلاصة لمذهب في الفلسفة الصوفية منسجم متسق الأجزاء ، وهو مذهب لا نكاد نظفر به كاملاً في كتاب آخر له ، كما لا نظفر بمثله في كتب غيره من الصوفية الذين سبقوه أو أتوا من بعده . وفي هذه الناحية أيضاً - ناحية مادة الفصوص - كان دين متأخري الصوفية لابن عربي عظيماً . وليس ما خلفه شعراء الفرس من تراث شعري صوفي رائع سوى صدى لتلك المعاني التي ابتكرها صاحب الفصوص وورثتها عنه العبقرية الفارسية فأبدعت في تصويرها وفي أساليب التعبير عنها . فاضت قلوب شعراء الفرس والترك بمعاني الوحدة الوجودية الشاملة وبالحب الإلهي القاهر القائم عليه كل شيء . وقالوا إن الحق أصل كل موجود ، وإنه يتخلل العالم بأكمله فيضاً عن فيض ، وإنه الفاعل على الحقيقة لكل شيء في كل شيء ، تصدر عنه الأشياء ، وتفيض عنه الحركات ، يلبس في كل آن صورة جديدة - ما لا نهاية له من الصور الجديدة - يخلعها عن نفسه إلى صور جديدة أخرى . وإن عالم الممكنات يخلق خلقاً جديداً في كل لحظة ويفنى في اللحظة التي تليها ، وإن

كنا لا ندرك ذلك من أنفسنا ومن العالم الذي يحيط بنا لكثرة ما يتعاقب علينا وعلى العالم من صور الفناء والبقاء . ويصف شعراء الفرس والترنك كيف أضاء الحق بنوره الأزلي جميع نواحي الوجود ، وكيف أضاءت أسماءه بالوجود أعيان الموجودات وهي في حال عدمها الأزلي ، فعكست كل عين منها كالات الأسماء كما تعكس المرايا صور المرئيات ؛ وكيف تجلت صفات الجلال الإلهي في نار الجحيم وفي الشياطين وظهرت صفات الجمال في الجنة والملائكة ، وكيف جمع الإنسان في نفسه هذه الصفات جميعها فكان عالماً صغيراً فيه كل ما في العالم الأكبر من صفات الجمال والجلال .

هذه بعض المعاني التي تغنى بها شعراء الفرس والترنك من أصحاب وحدة الوجود وكلها من مذهب ابن عربي في الصميم ومن بعض ما أودع في كتابه الفصوص .

٣ - ابن عربي فيلسوف صوفي

ولكن ابن عربي وإن وهب بسطة في الفكر والخيال ، وعمقا في الحس الروحي ، يعوزه المنهج الفلسفي الدقيق والتحليل العلمي المنظم . فهو من غير شك فيلسوف صاحب مذهب ومؤسس مدرسة ، ولكنه فيلسوف آثر أن يهمل منهج العقل الذي هو منهج التحليل والتركيب ويأخذ بمنهج التصوير العاطفي والرمز والإشارة والاعتقاد على أساليب الخيال في التعبير . وربما كان له عذره في كل ذلك لأنه - ككل صوفي - يعالج مسائل يستعصى على العقل غير المؤيد بالذوق أن يدركها ويستعصى على اللغة غير الرمزية أن تفصح عن أسرارها . ومتى كان العقل وحده أداة صالحة للوصول إلى اليقين ، أو إلى الحقيقة التي تطمئن إليها النفس ؟ ومتى كانت اللغة وحدها صالحة للتعبير عن تلك الحقيقة بعد الوصول إليها؟ فابن عربي فيلسوف

من غير شك من حيث أن له مذهباً في طبيعة الوجود كسائر الفلاسفة ، ولكنه
فيلسوف صوفي اصطنع أساليب الصوفية ورموزهم للتعبير عن فلسفته . وهذا
سبب من أسباب التعقيد الذي نلمسه في كل سطر من أسطر كتبه - لا سيما كتاب
الفصوص : فإن القارئ لهذا الكتاب لا يكاد يظفر بالفكرة الفلسفية فيه حتى
يجدها وقد غابت عن نظره تدريجاً تحت ستار من الرمزية يغلق معناها إلى حين ،
ثم تخرج من وراء هذا الستار مرة أخرى منسوبة في قالب شعري صوفي يخاطب
بها أصحاب الذوق والمواجد لا أصحاب الفكر والنظر ! . إن ابن عربي قد
كتب كتبه تحت تأثير نوع من الوحي أو الإلهام ، فأنزل في سطورها ما أنزل به
عليه لا ما قضى به منطق العقل ، ولهذا يجب أن ننظر إلى مذهبه في جملته لا في
تفاصيله ، ونستخلص هذه الجملة من بين أشد التفاصيل التي لا يبدو في ظاهرها
انسجام ولا ترابط . ولم يكن الرجل واهماً ولا مفترياً حينما قال في فصوصه
« ولا أنزل في هذا المسطور إلا ما ينزل به عليّ ، ولست بنبي ولا رسول ، ولكنني
وارث ، ولآخرتي حارث » . فهو يعتقد عن يقين أن كتابه من إملاء رسول الله
من غير زيادة ولا نقصان ، أملاه عليه في رؤيا رآها في دمشق سنة ٦٢٧ هـ ، وأنه
لم يكن إلا مترجماً لما كاشفه به النبي الذي هو منبع العلم الباطن ومصدر نور
المعرفة . كما أنه لم يكن واهماً ولا مخدوعاً عن نفسه عندما سمي موسوعته
الكبرى في التصوف باسم « الفتوحات المكية » وسمى كتاباً آخر بالتنزيلات
الموصلية إلى غير ذلك مما يؤيد به دعواه أنه لا يصدر في كتبه عن تفكير
أو روية ، بل عن كشف وإلهام ، وأما ما نطق به فيها لم يكن إلا من « الفتوح »
الذي يفتح الله به على الخاصة من عباده .

ولكنني على الرغم من كل هذا موقن بأن لتفكير ابن عربي نصيباً غير قليل

في تشكيل مذهبه ، وإن كانت موجات الشعور الصوفي المبالغته كثيراً ما قلت من حدة هذا التفكير وطغت عليه وأنزلته المنزلة الثانية . ولهذا لا أرى من الصواب أن نصف مذهبه بأنه مذهب فلسفي بحت - إذا اعتبرنا التفكير والترابط المنطقي أخص صفات الفلسفة - ولا بأنه مذهب صوفي بحت ، إذا اعتبرنا الوجدان والكشف أخص مميزات التصوف . ولكنه مذهب فلسفي صوفي معاً ، جمع فيه بين وحدة التفكير وقوة الوجدان ، وحاول أن يوفق فيه بين قضايا العقل وأحوال الذوق والكشف . وربما انفرد « الفصوص » من بين كتبه بأنه أكمل صورة جمع فيها بين هاتين الناحيتين واستغلها إلى أبعد مدى في تأييد مذهبه في وحدة الوجود . أما أن له مذهباً فلسفياً صوفياً في طبيعة الوجود فهذا ما لا سبيل إلى إنكاره أو الشك فيه ، فإننا نلمس هذا المذهب في كل صفحة من صفحات الفصوص كما نلمسه في كتبه الأخرى لا سيما الفتوحات ، وكلما حاول أن يخفيه أو ينطق بغيره عاد إليه فأكده وارتفع به صوته أشد ما يكون وأعنف ما يكون . غير أننا لا نكاد نظفر بهذا المذهب كاملاً في أي كتاب من كتبه - وإن كان الفصوص أجمعها وأشملها من هذه الناحية - ولذا يجدر بالباحث عن هذا المذهب أن يجمع عناصره المبعثرة في كل مكان ويؤلف بينها حتى يظهر له في وحدته المتأسكة . وما أشبه ابن عربي في هذا بفنان ألف لحناً موسيقياً عظيماً ثم بدا له أن يخفيه عن الناس فمزقه وبعثر نغماته بين نغمات ألحان أخرى . فاللحن الموسيقي العظيم هنالك لمن أراد أن يتكبد مؤونة استخلاصه وجمعه من جديد ! وقد سجل ابن عربي على نفسه قصد إخفاء مذهبه والضن بأن يظهره كاملاً في أي كتاب من كتبه في عبارة وردت في الفتوحات (ج ١ ص ٤٧ - ٤٨) . حيث يقول بعد أن ذكر عقيدة العوام ثم أردفها بعقيدة

الخواص «وأما التصريح بمقيدة الخلاصة (أي عقيدة خلاصة الخاصة وهي مذمومة
في وحدة الوجود) لما أفردتها على التعمين لما فيها من الغموض ، لكن جئت بها
مبعدة في أبواب هذا الكتاب (الذي هو الفتوحات) مستوفاة مبنية ، لكنها
كما ذكرنا متفرقة ، فمن رزقه الله الفهم فيها يعرف أمرها ويميزها من غيرها ، فإنها
العلم الحق والقول الصدق ، وليس وراءها مرمى ، ويستوي فيها البصير والأعمى ،
تلتحق الأبعاد بالأداني ، وتلحم الأسافل بالأعالي » .

٤ - أسلوبه في الفصوص وغيره

يقول العلامة نيكولسون في وصف أسلوب ابن عربي في الفصوص : إنه
يأخذ نصاً من القرآن أو الحديث ويأوله بالطريقة التي نعرفها في كتابات فيلون
اليهودي وأريجن الإسكندري . ونظرياته في هذا الكتاب صعبة الفهم ، وأصعب
من ذلك شرحها وتفسيرها ، لأن لغته اصطلاحية خاصة ، مجازية معقدة في معظم
الأحيان . وأي تفسير حرفي لها يفسد معناها ، ولكننا إذا أهملنا اصطلاحاته
استحال فهم كتابه واستحال الوصول إلى فكرة واضحة عن معانيه ، ويمثل
الكتاب في جملة نوحاً خاصاً من التصوف المدرسي العميق الغامض .

يستند كل فص من الفصوص السبعة والعشرين إلى طائفة من الآيات القرآنية
والأحاديث النبوية المتصلة بالكلمة الخاصة (النبي) الذي تنسب حكمة الفص إليه .
ويسرد المؤلف قصة كل نبي كما وردت في القرآن ، وكما يعرفها جمهور المسلمين
عادة ، ولكنه يتخذ من كل قصة مسرحاً ليمثل فيه صاحب القصة الدور الخاص
الذي يعهد إليه القيام به ، فإن الأنبياء على نحو ما صورهم في الفصوص نماذج

وصور للإنسان الكامل الذي يعرف الله حق معرفته ؛ فكل منهم ينطق - أو ينطقه ابن عربي - بالمعرفة التي اختص بها ، فيقوم في ذلك بشرح ناحية من نواحي مذهبه والدفاع عنه . فأدم مثلاً يفسر معنى الخلافة الإنسانية ويبين منزلته من الله والعالم ، وبأي معنى استحق الإنسان الخلافة عن الله ، وصدق عليه أنه الموجود الذي خلقه الله على صورته . وأيوب يمثل دور الإنسان الذي ابتلاه الله بعذاب الحجاب - لا عذاب البدن - فهو يبحث جاهداً عن طريقة لإزالة ألم الحجاب عن نفسه حتى يصل إلى برد شراب المعرفة الحقة . وداود وسليمان يتمثل فيهما نوعان من الخلافة : الخلافة الظاهرة التي هي خلافة المملك ويتبعها العلم الظاهر ، والخلافة الباطنة التي يتبعها العلم الباطن . ومحمد يمثل دور المدافع عن الفردية الثلاثية : أي التثليث الذي قام عليه كل شيء في الوجود وهكذا . يعتمد ابن عربي في كل ذلك إلى تخريج المعاني التي يريد من الآيات والأحاديث بطريقة خاصة في التأويل . فإن كان في ظاهر الآية ما يؤيد مذهبه - مهما كانت دلالتها على التشبيه والتجسيم - أخذ بها ، وإلا صرفها إلى غير معناها الظاهر . وهو مع هذا لا يميز تأويل المعتزلة للآيات الدالة على التشبيه ، بل يتهمهم بأنهم يحكمون العقل وحده في مسائل الإلهيات ويقولون بتنزيه الله تنزيهاً مطلقاً ، وهذا في نظره جهل بنصف الحقيقة ، إذ الحقيقة الكاملة هي أن الله تعالى منزّه مشبّه معاً . (راجع كلامه في الفص الثاني والعشرين في تفسير قوله تعالى وما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى) .

ولا تخلو طريقة تأويله للآيات من تعسف وشطط أحياناً لا سيما إذا عمد إلى الحيل اللفظية في الوصول إلى المعاني التي يريد لها كأن يقول في الفص الأيوبي إن المراد بالشیطان في قوله تعالى « إني مستني الشيطانُ بنُصبٍ وعذابٍ » هو البعد ،

وإن ما شعر به أيوب لم يكن ألم المرض الذي ابتلاه الله به ، بسبل ألم عذاب
الحجاب والجهل بالحقائق ، أو يقول في الفص الموسوي إن المراد بقول فرعون
« لئن اتخذت إلهًا غيري لأجعلنك من المستجوين » لأجعلنك من المستورين
لأن السين من أحرف الزوائد ، فإذا حذف من سجن بقيت « جن » ومعناها
الوقاية والستر ، وفي قوله (في الفص نفسه) « إن رسولكم الذي أرسل إليكم
لمجنون » معناه مستور عنه علم ما سأله عنه . وكقوله في تفسير الآية « وقالوا
لن نؤمن حتى تؤتى ما أوتى رسل الله ، الله أعلم حيث يجعل رسالته » إن
في الإمكان أن نجعل « رسل الله » مبتدأ خبره الله (الثانية) فيكون معنى
الآية : وقالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى (أي الرسول) : رسل الله هم الله ،
هو أعلم حيث يجعل رسالته !

وعماده في كل ذلك أنه يتكلم بلسان الباطن ، الذي هو في الحقيقة لسان
مذهبه ، ويترك الظاهر الذي يعبر عن عقيدة العوام . فهو يقابل دائماً بين هذين
اللسانين كما يقابل بين العقل والذوق : العقل الذي هو لسان الظاهر ، والذوق
الذي هو لسان الباطن .

ثم إنه يتمشى مع القرآن في تسلسل آياته في القصاص ، متبعاً طريقة التأويل التي
أشرنا إليها : يخرج من القصة ثم يعود إليها ثم يخرج منها ثم يعود إليها ، شارحاً ،
معلقاً ، متفلسفاً ، شاطحاً أحياناً ، مستطرداً في أغلب الأحيان . وكثيراً ما يكون
استطراده لمناسبات لفظية بحتة ، كما تكلم في الفص المحمدي عن الطيب الوارد في
الحديث « حُبَّبَ إلي من دنياكم ثلاث النساء والطيب الخ » فجره ذلك إلى الإفاضة ،
في ذكر الطيب (ضد الخبيث) من الأفعال والأشياء : أي الحسن والقيح منها ،
ثم عرض لمشكاة الخير والشر وحقيقة الشر ومنزلته من الوجود العام . وكما جره

الكلام (في نفس الفص) في الصلاة والمصلي إلى الكلام في المصلي والمجلي
و درجات الناس في قريهم من الله .

٥ - غموض أسلوبه

المعروف عن الصوفية إطلاقاً أنهم قوم لا يتكلمون بلسان عموم الخلق ، ولا يخوضون فيما يخوض فيه الناس من مسائل علم الظاهر، وإنما يتكلمون بلسان الرمز والإشارة - إما ضمناً بما يقولون على من ليسوا أهلاً له ، وإما لأن لغة العموم لا تفي بالتعبير عن معانيهم وما يحسونه في أذواقهم ومواجدهم . أما ما يرمزون إليه فحقائق العلم الباطن الذي يتلقونه وراثته عن النبي ، وهذه الحقائق لا يستقل بفهمها عقل ، ولا بالتعبير عنها لغة . وهذان الأمران وحدهما كافيان في تفسير الصعوبات التي تعترض سبيل الباحث في فهم معاني الصوفية ومراميهم . ولذا كان الحذر ألزم ما يلزم الناظر في أقوالهم حين يحللها أو يؤولها أو يحكم عليها . فكثيراً ما زلت أقدام الباحثين في أساليب القوم فصرفوها إلى غير معانيها، أو حملوها ما لا تحتل، أو أخذوا بظاهرها حيث لا يراد ذلك الظاهر . وهذه مسألة تنبه إليها القدماء وحذروا من الوقوع فيها ، بل نصحوا الناس - طلباً للسلامة ، وصوناً للصوفية من أن يتجنى عليهم من ليس منهم ، أن يكفؤوا عن قراءة كتبهم أو يخوضوا في أقوالهم . وقد تردد هذا النصح بوجه خاص في النهي عن مطالعة كتب ابن عربي لما اشتهر به غموض أساليبه واستغلاق معانيه - لا تزهداً للناس في قراءتها، أو إنكاراً عليه فيما كتبه، وإن حدث ذلك أحياناً، بل حرصاً على ألا يساء فهم مقصوده، وحماية لعقيدة القارئ من أن تتسرب إليها شكوكهم في غنى عنها، بسبب قراءتهم الكلام رجل لا يفهمون أغراضه . والأمثلة على ذلك